الموقف العقدى
من مسألة التوسل

دكتـــــور

إيمان أحمد محمد حسن

أستاذ ورئيس قسم العقيدة والفلسفة المساعد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات ببنى سويف

جامعة الأزهر

يقول الله تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر : ٣٨)

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ البقرة : ١٨٦

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ المائدة : ٣٥

مقدمة

نحمدك ربنا كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ونصلى على المبعوث رحمة للعامين وبعد فإن الناس قد اعتادوا منذ زمن أن يلهثوا بالدعاء مستبشرين بالإجابة قائلين (اللهم بحق نبيك أو بجاهه أو بقدره عندك عافني واعف عني) أو يقولون (اللهم إني أسألك بحق البيت الحرام أن تغفر لي) أو (اللهم بجاه الأولياء والصالحين ومثل فلان وفلان..) أو (اللهم بكرامة رجال الله عندك وبجاه من نحن في حضرته وتحت مدده فرج الهم عنا وعن المهمومين) وغير ذلك ....). إلخ ويطلقون على هذا توسلا ويدعون أنه سائغ ومشروع وأنه قد ورد فيه بعض الآيات والأحاديث التي تقره وتشرعه بل تأمر به وتحض عليه .

فالوسيلة لما كانت باعثة لتقرب العباد إلى الله تعالى، والتقرب إلى الله هو مقصود الإنسان ومطلوبه فى عبادته وأعماله، لأن السعادة والفلاح لا يحصلان للإنسان فى الدنيا والآخرة بدون التقرب، والتقرب لا يحصل بدون الوسيلة، فحصول السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة موقوف على الوسيلة.

وقد صرح ابن القيم فى كتابه "زاد المعاد"، بقوله: "لا سبيل إلى السعادة والفلاح، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، إلا على أيدى الرسل، ولا ينال رضى الله البتة إلا على أيديهم"(١).

فعلم أن الوسيلة التى حصلت بها السعادة والفلاح فى الدنيا والآخرة هى ذوات الأنبياء والرسل، والوسيلة أيضاً يحصل بها الحوائج، وحصول الحاجة نعمة من الله، فالوسيلة يحصل بها النعمة، وما حصلت به النعمة فهو أيضاً نعمة.

(١) زاد المعاد (٦٩/١).

فإذا ثبت أن الوسيلة نعمة وإحسان من الله، فما يكون أكمل نعمة فهو أكمل وسيلة، ولا شك أن ذوات الأنبياء والرسل من أعظم إنعاماته تعالى، فجاز أن تكون وسيلة. (لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم) (١).

فثبت أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم هو الوسيلة العظمى فى الدنيا والآخرة، فلا يحصل الفلاح والسعادة لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا به، كما قال ابن القيم.

فالتوسل لهجة يجأر بها أهل الحق متذللين منكسرين بها لله عز وجل لدفع نقمة أو جلب نعمة، وكأنها عودة لفطرة الله التى فطر الناس عليها، نطق بها كل طفل على وجه البسيطة مستغيثاً مستجيراً بأمه إذا ما وجل من حرج أو احتاج تحقيق طلب فلا يعرف أحداً إلا أمه فيناديها فى كل لحظة.. تُرى أيولد المولود على الشرك !؟! والصادق ﷺ أعلمنا بأن المولود يولد على الفطرة، والفطرة خالص الإيمان والتوحيد.

ونرى ذلك أيضاً متكرراً إلى يوم القيامة إذ يلجأ الخلائق يوم غضب الرب سبحانه إلى الأنبياء متوسلين بهم، راجعين رضا ربهم، وكل نبى يقول: نفسى نفسى، أذهبوا إلى غيرى، حتى يبلغوا عيسى عليه السلام فيقول: أذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وكأن البارى سبحانه وتعالى يرينا مشهداً رائعاً فى إقرار الوسيلة فى ديننا، يلتمسها العبد من الأدنى إلى الأعلى، وكأنه نعمة الله سبحانه وتعالى تسرى فى أرواح المقربين متفاوتة بقدر علو مقاماتهم.

و نلحظ مدى أهمية هذه الدراسة حينما يصل بالبعض إلى التوسل إلى الله تعالى ببعض مخلوقاته كقبور الأولياء والحديد المبني على أضرحتهم والتراب والحجارة والشجرة القريبة منها زاعمين أن ما جاور العظيم فهو عظيم وأن إكرام الله لساكن القبر يتعدى إلى القبر نفسه، وهؤلاء ناسين أو متناسين إن الله تعالى قريب من عباده

(١) آل عمران الآية (١٦٤).

: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (١)، فليس بين الله وبين عباده ما يمنع من مناجاته واللجوء إليه وطلب الحاجة منه مباشرة حتى يلجأ الإنسان إلى قبور الموتى يتوسل بهم ويدعوهم ليشفعوا له عند الله ويسألهم مالا يملكون ويطلب منهم ما لا يقدرون عليه .

بل الأولى بالإنسان أن يلجأ إلى ربه مباشرة، ويتوسل إليه التوسل المشروع، وذلك بالتقرب إليه بالطاعات والأعمال الصالحة ودعائه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وأن يكون معتقدا تمام الاعتقاد أن الله تعالى هو المعز المذل المحيي المميت الرازق النافع المدبر لشؤون الحياة كلها وأن بيده وحده النفع والضر، قال صلى الله عليه وسلم : (واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك بشيء إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)، فالفرد سواء كان حيا أو ميتا من باب أولى لن ينفع ولن يضر أحدا إلا بشيء قد كتبه الله .

ونحن إذ نعرض لهذا الأمر إنما هو بهدف تصحيح العقائد وتوجيهها الوجهة الشرعية دون إقتداء بأحد من الكتاب المعاصرين أو تهجماً على أحدٍ، أو إنتقاصاً لقدره فليس البحث العلمى بحقل لهذه المهاترات ..

إننا نهدف إلى جمع القلوب وتصحيح المنهج العقدى ونحن نمر فى أيام صعبة تعصف بالمسلمين فى العراق وأفغانسان وفلسطين، ومبدأنا هو أن الخلاف فى الرأى لا يفسد ود أحد فكل يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذى ندين له بكل ولاء وحب واخلاص إلى يوم الدين، باقين على العهد صامدون على دينه، نذب عنه بما نملكه من عتاد وسلاح وقلم، ولعلنى لا أملك سوى

(١) البقر: ١٨٦

هذا الأخير فاللهم أجعل فيه تقريب بين القلوب وألفة بين الأرحام، وأن يلهمنى الصواب ويزيل عنى الشطط .

ولقد تناول الكثير هذه القضية تارة بالقول بالوسيلةومرة بالتوسل وغير ذلك من المعانى القريبة كالقول بالواسطة بين الحق والخلق أو الشفاعة بالصالحين والأولياء .

فهذا الطرح لا يغير من أمر الوسيلة شيئ، ورأينا أن الوسيلة هى الأولى بالتعبير لورود النص بها، و أن نزوع القضية إلى موطن العداء والشطط ورمى البعض بالكفر والزيغ ما لايليق ونحن فى هذه الأوقات التى يجب أن نقف جميعاً يدا واحدة تاركين هذه الحدة فى البحث لغيرنا ممن لم يرثوا نصيباً ضخماً من العلم جائت به خير شرائع الأرض، فمن غير اللائق أن نحيد على الهدف الأسمى التى جائت به الشريعة التى تبغى وحدة الصف فنعمد إلى تفريقه [1] والمدقق فى المسألة يجد أنها ما تستدعى هذا كله .ولذا فقد عزمت أن أوجه سلاحى لتأليف وتقريب الأراء ووضعها فى الجانب الذى كان يهدف إليه صاحبه، فلا أقتطع ألفاظاً لأعود لبحثها منفردة بعيداً عن السياق أو الهدف الذى وضعت فيه . لأن هذا من أهم أ سباب الخلاف .

ولن يكون أحدا أسعد منى نفساً حينما تؤدى هذه الورقات القليلة دوراً ولو ضئيلاً، وسأتقبل النقد بصدر رحب فهو تبصرة لما وقعت فيه وبياناً لما اشكل على .

والله من وراء القصد

الباحثة / إيمان أحمد محمد

(١) وفى سبيل ذلك رأينا الألبانى يعصف بمن خالفه كالغمارى والبكرى بينما يهاجم عيسى المانع بن تيمية واصفاً إياه بإمام المجسمة تراجع ص ٤٨ من كتاب التأمل فى حقيقة التوسل. عيسى المانع. ط ١ سنة ٢٠٠١ م دار قرطبة للنشر

خطة الدراسة :

مقدمة وخمس مباحث وخاتمة وقائمة بأهم مراجع البحث

المبحث الأول : تعريف التوسل

المبحث الثانى : التوسل فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة

المبحث الثالث : إرتباط التوسل بالعقيدة

المبحث الرابع : التوسل المؤدى إلى الشرك

المبحث الخامس : موقف العلماء من التوسل بالنبى والأولياء الصالحين

خاتمة البحث وثمرته

قائمة بأهم مراجع البحث

المبحث الأول :

تعريف التوسل

أولاً : فى اللغة

التوسل لغة: التقرب، يقال: توسل إليه بوسيلة، إذا تقرب إليه بعمل، ووسل فلان إلى ربه وسيلة، وتوسّل إليه بوسيلة، أى تقرب إليه بعمل، والواسل: الراغب إلى الله[١].

قال ابن الأثير: هى فى الأصل ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب بها فيقال توسل إليه بكذا أى : تقرب إليه وقال الجوهرى: الوسيلة ما يتقرب به إلى الغير.

والوسيلة: هى التى يتوصل بها إلى تحصيل مقصود ما، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ . [٢].

وقد عبر عن ذلك الراغب الأصفهانى فقال: "الوسيلة: التوصل إلى الشيء برغبة، وهى أخص من الوصيلة، لتضمنها لمعنى الرغبة، قال تعالى: (وابتغوا إليه الوسيلة) [٣].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: "الوسيلة هى ما يتقرب به إلى الكبير .[٤]

---

(١) انظر مادة "وسل" فى لسان العرب (١١/ ٧٢٤)، وتاج العروس (٨/ ١٥٤)، والصحاح للجوهرى (٥/ ١٨٤١)، وأنظر تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

(٢) من سورة المائدة الآية (٣٥).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن (ص ٨٧١) بينما يقول الحكيم الترمذى: "الوسيلة والوصيلة بمعنى واحد، إلا أن الوصيلة أن يوصل الشيء بالشيء، فلما صار الأمر إلى ذكر الله عز وجل أخرجوه مخرج القربة، فقيل: وسيلة، بدل بالسين صاداً" يراجع الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذى (ص٦٦).

(٤) المراجع السابقة : فى لسان العرب (١١/ ٧٢٤)، وتاج العروس (٨/ ١٥٤)، والصحاح للجوهرى (٥/ ١٨٤١)، وأنظر تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

ثانياً : فى الاصطلاح

التوسل إصطلاحاً: لم يتفق العلماء على معنى اصطلاحى محدد يعنى بمعنى التوسل وإنما يفهم من تعرضهم للوسائل المشروعة وغيرها من أن الوسيلة ما يتوصل به إلى رضا الله تعالى قضاء لحاجة أو مجرد قربة إلى الله .

فهى لا تخرج عن كونها جعلُ الشيء الذى له عند الله قدر ومنزلة وسيلةً لإجابة الدعاء، ويدخل فى ذلك التوسل بأسماء الله وصفاته، والتوسل بالإيمان بالله وبرسوله ﷺ، والأعمال الصالحة، وذوات الأنبياء والصالحين .

وخلاصة القول أن الوسيلة : جعل ما له قدر ومنزلة عند الله غاية إلى القرب منه فهى ظواهر ملموسة لمعان نفيسة محسوسة مما يشعر بمشروعيتها لتحقيق تلك المطالب المخصوصة، فا لوسيلة : طريق الوصول إلى المأمول.

المبحث الثانى :

التوسل فى القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة

إن المدخل الصحيح لبيان حقيقة الشيء هو البحث فى صلب العقيدة الإسلامية وصلب العقيدة ومنشأها هو كتاب الله وبالولوج إليه وجدنا آيات كثيرة تبين معنى التوسل تصريحاً أو تعريضاً، وجميعها تظهر هذه الحقيقة، وسنورد عدداً من الآيات القرآنية صريحة الدلالة على حقيقة التوسل وأخرى ضمنية، سوف نبين ومعناهما عند رجالات التفسير ببيان وجه المعنى والدلالة ، ثم نستنبط منها ما يقتضيه الحال.

ثم نردف بعد ذلك الأحاديث الدالة على التوسل فى السنة النبوية الشريفة وذلك فى مطلبين متتاليين :-

المطلب الأول : التوسل فى القرآن الكريم

التوسل فى القرآن الكريم لا يخرج عما جاء فى اللغة العربية وهو ما عليه عمل السلف الصالح وأئمة التفسير ودلائل ذلك ما ورد فى الآيتين الكريمتين اللتين وردت فيهما لفظة (الوسيلة) وهما (أ) قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُواْ فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1]

(ب) والآية الثانية : قوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[2] . وقد جائت هاتين الآتيتين صراحة فى القرآن بينما جائت آيات أخرى تعريضاً . وسوف نعرض لمعنى الآيات الصريحة ثمً يأتى تفسير الآيات الدالة على الوسيلة لتعريضاً .

(أ) فأما الآية الأولى وهى دلالة صريحة على استعمال معنى وسيلة :

فقد قال الحافظ ابن جرير رحمه الله في تفسيرها : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله :أى أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم بالطاعة له في ذلك . (وابتغوا إليه الوسيلة) : يقول : واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه)

(١) سورة المائدة : ٣٥

(٢) سورة الإسراء : ٥٧

ونقل الحافظ ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى الوسيلة فيها القربة ونقل مثل ذلك عن مجاهد وأبي وائل والحسن وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد ونقل عن قتادة قوله فيها : (أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه) ثم قال ابن كثير : (وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه . . والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود)[١]

(ب) وأما الآية الثانية :

فقد بين الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مناسبة نزولها التي توضح معناها فقال : (نزلت تلك الآية في نفر من العرب حيث كانوا يعبدون نفرا من الجن فأسلم الجنيون والإنس الذين كانوا يعبدونهم لا يشعرون)[٢]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (أي استمر الإنس الذين كانوا يعبدون الجن على عبادة الجن والجن لا يرضون بذلك لكونهم أسلموا وهم الذين صاروا يبتغون إلى ربهم الوسيلة وهذا هو المعتمد في تفسير الآية) [٣]

قلت : وهي صريحة في أن المراد بالوسيلة ما يتقرب به إلى الله تعالى ولذلك قال: (يبتغون) أي يطلبون ما يتقربون به إلى الله تعالى من الأعمال الصالحة وهي كذلك تشير إلى هذه الظاهرة الغريبة المخالفة لكل تفكير سليم ظاهره أن يتوجه بعض الناس بعبادتهم ودعائهم إلى بعض عباد الله يخافونهم ويرجونهم مع أن هؤلاء [٤] العباد المعبودين قد أعلنوا إسلامهم وأقروا لله بعبوديتهم وأخذوا يتسابقون في التقرب إليه

---

(١) تفسير ابن كثير (٢ / ٥٢ – ٥٣

(٢) رواه مسلم (٨ / ٢٤٥ نووي) والبخاري بنحوه (٨ / ٣٢٠ – ٣٢١ فتح) وفي رواية له: (فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم)

(٣) فتح الباري (١٠ / ١٢ و ١٣)

(٤) التوسل : أنواعه وأحكامه / محمد ناصر الدين الألباني / محمد عيد العباسي ص١١ الطبعة الثالثة / منقحة ومصححة / المكتب الإسلامي

سبحانه بالأعمال الصالحة التي يحبها ويرضاها ويطمعون في رحمته ويخافون من عقابه فهو سبحانه يسفه في هذه الآية أحلام أولئك الجاهلين الذين عبدوا الجن واستمروا على عبادتهم مع أنهم مخلوقون عابدون له سبحانه وضعفاء مثلهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا وينكر الله عليهم عدم توجههم بالعبادة إليه وحده تبارك وتعالى . وهو الذي يملك وحده الضر والنفع وبيده وحده مقادير كل شيء وهو المهيمن على كل شيء . (١)

وما سبق هو ذكر للآيتين اللاتى ذكر فيهن لفظ " الوسيلة " وقد وردا لفظاً صريحاً، وقد ورد غير ذلك من الآيات تعريضاً تؤدى معنى الوسيلة وسوف نعرض لبعض من هذه الآيات لنصل فى النهاية لمقصد " الوسيلة " فى القرآن الكريم .

ثانياً : دلالة معنى الوسيلة تعريضاً فى القرآن الكريم

وهذه الآيات كثيرة جداً أكثر من أن تحظى، وسنعرض بعضاً منها لتحصيل المقصود من معنى " الوسيلة فى القرآن الكريم ومن ذلك

(أ) : قال تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ ﴾(٢)

وجه دلالة الآية : إن الله تعالى أتى فى هذه الآية بالتوسل إليه بالمعانى والمبانى، بالأقوال والأفعال، فالصبر رمز عن التوسل بالمعانى والصفات، والصلاة رمز عن التوسل بالأفعال والذوات، إذ أن التوسل لا يتم إلا بواحد منهما إما أن تنتحلها أو تنتحل بها.

وقد قدم التوسل بالمعانى على الذوات لأن الذوات أصل للصفات فلا بد على الأصل أن يتأخر ولا بد للصفة أن تتقدم فسبحان الذى قدر فهدى.

---

(١) التوسل : أنواعه وأحكامه / محمد ناصر الدين الألباني / محمد عيد العباسي ص١١ الطبعة الثالثة / منقحة ومصححة / المكتب الإسلامي

(٢) من سورة البقرة الآية (٤٥).

(ب) : قوله تعالى:﴿ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّه عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٨٩]

وجه دلالة الآية : ويستبين دلالة هذه الآية من سبب النزول حيث يقول المفسرون: إن اليهود كانوا إذا حزبهم أمر ودهمه عدو يقولون: "اللهم أنصرنا بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد نعته – أى: صفته – فى التوارة، فكانوا ينصرون".

قال ابن إسحاق فى سيرته[١]: وحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة، عن رجال من قومه قالوا: لم يكن أحد من العرب أعلم بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم منا، كان معنا يهود، وكان أهل كتاب، وكنا أهل وثن، وكنا إذا بلغنا منهم ما يكرهون قالوا: إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما بعث الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم اتبعناه وكفروا به، ففيهم أنزل الله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) [٢].

وقد تجلى هذا المعنى عند كثير من المفسرين منهم بن الجوزى والقرطبى والإمام الرازى واليهيقى وأبو حيان الإندلسى[٣] .

(١) هذا الإسناد ثابت فقد صرح ابن إسحاق بالسماع، وعاصم بن عمر بن قتادة ثقة، وشيوخة جماعة يجبر بعضهم بعضاً، فالأثر إسناده صحيح، وهو مشهور، وقد أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٧٥ – ٧٦)، والطبرى فى تفسيره (١ / ٤٥٥)، وذكرا روايات أخرى لهذا الأثر يجبر بعضها بعضاً وتتقوى بهذا الأثر الصحيح.

(٢) من سورة البقرة الآية (٨٩).

(٣) قال ابن الجوزى: (يستفتحون: يستنصرون، وكان اليهود إذا قاتلت المشركين استنصروا باسم نبى الله محمد صلى الله عليه وسلم" يراجع فى ذلك زاد المسير (١/ ١١٤) .

وقال القرطبى: "قال ابن عباس: كانت يهود خيبر تقاتل غطفان، فلما التقوا هزمت يهود، فعاذت يهود بهذا الدعاء وقالوا: إنا نسألك بحق النبى الأمى، الذى وعدتنا أن تخرجه لنا فى آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم.

قال: فكانوا إذا التقوا دعوا بهذا الدعاء فهزموا غطفان، فلما بعث النبى صلى الله عليه وسلم كفروا، فأنزل الله تعالى (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى: بك يا محمد، إلى قوله: (فلعنة الله على الكافرين) يراجع فى ذلك : تفسير القرطبى (٢/ ٢٦- ٢٧)،

وقد أورد الإمام البيهقى رحمة الله هذا الأثر بسنده فى "دلائل النبوة" يراجع فى ذلك : دلائل النبوة (٧٦/٢) بعدة روايات يعضد بعضها بعضاً.

وقال الإمام الرازى رحمه الله: "فى سبب النزول عدة وجوه: أحدهما: أن اليهود من قبل مبعث محمد عليه السلام ونزول القرآن كانوا يستفتحون أى: يألون الفتح والنصرة، وكانوا يقولون: اللهم افتح علينا وانصرنا بالنبى الأمى" يراجع فى ذلك : التفسير الكبير (٣/ ١٨٠).

وقال أبو حيان الأندلسى فى تفسيره : "يستفتحون أى: يستحكمون أو يستعلمون أو يستنصرون، يقولون إذا دهمهم العدو: اللهم أنصرنا عليهم بالنبى المبعوث فى آخر الزمان الذى على المعنى الذى نحن بصدده، حيث إنها حسمت القضية، فذكرت تفضيل الأنبياء بعضهم على بعض، وتقرب بعضهم ببعض، وأنها حقيقة يظهر فيها التواضع والخضوع، والتذلل للحى القيوم سبحانه، وعمق الاعتراف بفضل الله سبحانه، لذلك ظهر لنا سر خفى قل من يدركه، = =وهى حقيقة تاريخية وانتكاسة فكرية فى حقبة من الزمن بُلىَ بها جيل بين رسالتين، رسالات الأنبياء السابقين، والرسالة الخاتمة، ففى تلك الفترة اختلت المفاهيم بالبعد عن فطرة الله والبعد عن الهدى السماوى، ودخلت الأغراض النفسية والنزوات الشخصية التى ألبست الحق بالباطل، وأظهرته للمجتمع بديباجة واحدة أمام مجتمع ساده الجهل، وخيّم عليه بجرانه، فصيروا التقرب بالصالحين عبادة بعد أن كانت قربة، بأن شيدوا لتلك المعانى صورة محسوسة بأشكال مختلفة أملاها عليهم الوهم، وأرشدهم إليها الشيطان، واتخذوها فى زعمهم قربة يولونها ما يولون الإله، فكذبهم الحق سبحانه وتعالى بذلك الزعم، وبين أنهم لا يملكون عهداً منه سبحانه على ذلك. يراجع فى ذلك : البحر المحيط (١/ ٣٠٣).

وغيرهم [١] وزاد البيضاوى رحمه الله تعالى على المعنى المتقدم عند قوله " يستفتحون " بأن السين للمبالغة والإشعار بأن الفاعل يسأل ذلك من نفسه [٢]

خلاصة ما مضى :

جاء لفظ وسيلة فى القرآن صراحة وذلك فى الآيتين السابقتين وقد ورد معنى الوسيلة تعريضاً فى أكثر من موضع غير أنهما يلتقيان فى معنى واحد وهو أن الوسيلة الطريق للوصول للمأمول والأمر كما عبر البعض عنه بقنطرة موضوعة لمعان مشروعة أو ظواهر محسوسة لمعان محسوسة [٣] .

واللفظ الصريح الذى جاء فى القرآن مما لا يختلف عليه المفسرين بينما دار الخلاف وتباينت وجهات النظر فى المفهوم من معنى الوسيلة تعريضاً، ونحن نقر بأن العمل الصالح لا يتحقق إلا بذات صالحة، إذ لا يتصور انفكاك الأعمال عنا بحال، فإذا صح التوسل بالأعمال الصالحة، وهى فرع عن الذوات، فمن باب أولى أن يتوسل بالذوات، لأنها الأصل الحقيقى الذى تبرز منه الأعمال، ولو أراد الحق سبحانه قصر التوسل على الأعمال لما أمر باتباع النبى صلى الله عليه وسلم، واعتبار محبته وطاعته محبة له سبحانه، ولا كتفى بأن يأمر بطاعته ومحبته مباشرة، إلا أن الاتباع يستلزم إيجاد الواسطة وهو النبى صلى الله عليه وسلم، وبذا يستلزم الأمر مراعاة

(١) كالزمخشرى فى الكشاف ٣٤٩/١، والخازن فى ٦٥/١، والإمام اسماعيل حقى فى روح البيان ١٧٩/١ وشيخ زاده فى حاشيته على البيضاوى فى ٣٤٩/١ والألوسى فى روح المعانى ١٧٩/١ .

(٢) البيضاوى ٣٥٩/١

(٣) التأمل فى حقيقة التوسل . د. عيسى عبد الله مانع الحميرى ص٤٦٦ ط١ ٢٠٠١م – ١٤٢٢هـ . دار قرطبة للطباعة والنشر

الضوابط التى ذكرها الألبانى فى تحديده لمعنى الوسيلة بضرورة أن يكون المقصد هو الله وذلك بالطرق المشروعة (١) .

وسوف نعرض الجدل العقائدى فى المسألة وصولاً إلى موقف رجال الفكر والعقيدة من المسألة لاسيما وقد وصل الأمر بتكفير بعضهم بعضاً، رغم أن المسألة ما كانت تستلزم هذا لو أمكن جمع الأطراف وتوحيد ما يهدفون إليه وهو ما سوف نعرض له لاحقاً .

المطلب الثانى : التوسل فى السنة النبوية الشريفة

حفلت السنة النبوية الشريفة بأدلة كثيرة جداً تفيد جواز التوسل سواء كان بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم أو بالعمل الصالح .. وسوف نسوق بعضاً من هذه الأدلة بقدر ما يحدد معالم التوسل فى السنة ونسوق فى تبيان ذلك ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلُّوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرَّةً صلى الله عليه عشراً، ثُمَّ سَلُوا الله ليَ الوسيلة، فإنها درجة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل الله ليَ الوسيلة حلت له الشفاعة) (رواه مسلم) . وسوف نعرض لبعض الأحاديث إظهاراً لحقيقة التوسل فى السنة ..

---

(١) وقد تبين من الكتاب والسنة أن العمل حتى يكون صالحا مقبولا يقرب إلى الله سبحانه فلا بد من أن يتوفر فيه أمران هامان عظيمان :
أولهما : أن يكون صاحبه قد قصد به وجه الله عز وجل
وثانيهما : أن يكون موافقا شرعه الله تبارك وتعالى في كتابه أو بينه رسوله في سنته فإذا اختل واحد من هذين الشرطين لم يكن العمل صالحا ولا مقبولا يراجع : التوسل أنواعه وأحكامه ناصر الدين الألبانى ص١٢ ط٣ المكتب الإسلامى – المرجع السابق

الدليل الأول: ما أخرجه الترمذى رحمه الله من طريق عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبى صلى الله عليه وسلم وآله وسلم فقال: "ادع الله أن يعافينى، فقال: أن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضا فيحسن الوضوء ويدعوا بهذا الدعاء اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبى الرحمة، يا محمد: إنى توجهت بك إلى ربى فى حاجتى هذه لتقضى لى، اللهم فشفعه فى"[1].

وفى رواية: "فإن كان لك حاجة فمثل ذلك فافعل" وهى زيادة حماد بن سلمة، وفى هذه الزيادة إذن بالتوسل فى سائر الأحوال، قال عثمان بن حنيف: "والله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل بصيرً، كأن لم يكن به ضر".

وجه الدلالة من الحديث :

يجب أن نبين مدى صحة هذا الحديث من حيث الرواية حيث أن راوى هذا الحديث هو الصحابى الجليل عثمان بن حنيف الأنصارى الأوسى، شهد أحداً والمشاهد بعدها، واستعمله عمر ابن الخطاب رضى الله عنه على مساحة سواد العراق، واستعمله على البصرة أيضاً، وبقى إلى زمن معاوية[2]، ومن ثم فلا مطمع فى القول بتضعيف الحديث لقوة الرواة .

---

(١) رواه الترمذى رقم (٣٥٧٨)، والنسائى فى السنن الكبرى٠ ٦/ ١٦٩)، وابن ماجه رقم (١٣٨٥)، والإمام أحمد (١٣٨/٤)، والحاكم فى المستدرك (١/ ٥٢٦ – ٥٢٧)، وقال: صحيح على شرط البخارى، وأقره الذهبى، ورواه الطبرانى فى الكبير (٩/ ٣٠/ – ٣١)، والصغير (ص ٢٢٠ – ٢٢١)، وصححه، ورواه ابن خزيمة رقم (١٢١٩)، والبيهقى فى كتابيه الدعوات الكبيرة (١/ ١٥١)، ودلائل النبوة (٦/ ١٦– ١٦٧)، وابن السنى فى عمل اليوم والليلة (ص ٥٨١ – ٥٨٢).

(٢) انظر ترجمته فى الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر (٦/ ٣٨٦)، وسير أعلام النبلاء للذهبى (١٢/ ٣٢٠).

أما من حيث المتن فيجب أن نحدد المعنى الذى إنصرف إليه الحديث وعلاقته بالوسيلة وموقف رجال الحديث من المعنى الذى انصرف إليه صراحة :

قال ابن علان فى شرح هذا الحديث: "اللهم إنى أسألك" أى: مطلوبى. "بنبيك" أى: بوسيلته وشفاعته، والباء للتعدية أو للمصاحبة. "نبى الرحمة" صفة له ولا يخفى مناسبة هذا الوصف للمقام. "يا محمد" التفات إليه ليتوجه إلى الله تعالى، فيغنى السائل به عما سواه.

"أتوجه بك" أى: بذاتك، والباء فيه للاستعانة. "لتُقضى لى" وفى نسخة" من "الحصن" لتقضى بصيغة الفاعل أى: لتقضى الحاجة، والمعنى لتكون سبباً لحصول حاجتى ووصول مرادى، فالإسناد مجازىٌ. "اللهم فشفعه" أى: يالله أقبل شفاعته فى حقى[1].

ويقول الإمام السبكى: إنه لم ينكر التوسل أحد من السلف..، فيكفى عليه دليلاً رواية الترمذى وابن ماجه والحاكم لهذا الحديث، وحكم الحاكم أنه صحيح على شرط البخارى ومسلم، وتلقى الأمة له بالقبول والتطبيق مئات من السنين، دون أى تردد فى ذلك القبول. أما بشأن صحة إمكان استعمال هذا الدعاء على ممر الأجيال بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإن أجلَّ وأصوب حكمٍ حول هذا الأمر بلا منازع على الإطلاق، هو الصحابى عثمان بن حنيف نفسه، حيث قد علمه أيضاً لأحدهم أثناء خلافة عثمان رضى الله عنه، وقضيت حاجته، (كما سيمر معك لا حقاً) وكان هذا سبباً لرواية الحديث، فليتنبه. ولا عبرة لكلام من خالف الصحابة فى مثل هذه الأمور ولو كان من كان.

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى (٢/ ١٣٤، ١٣٥).

وقال غيرهم فى شرح هذا الحديث: "سأل الله أولاً أن يأذن لنبيه أن يشفع له، ثم أقبل على النبى ملتمساً شفاعته، ثم كرّ مقبلاً على ربه أن يقبل شفاعته[١].. قال السبكى: "ويحسن التوسل والاستعانة والتشفع بالنبى إلى ربه، ولم ينكر ذلك أحد من السلف [٢].

شبهات حول معنى الحديث

يقول الألبانى : أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ويؤيده أنه لو كان السر هو في دعاء الأعمى وحده دون دعائه صلى الله عليه وسلم لكان كل من دعا به من العميان مخلصا إليه تعالى منيبا إليه قد عوفي بل على الأقل لعوفي واحد منهم وهذا ما لم يكن ولعله لا يكون أبدا .

كما أنه لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ وقدره وحقه كما يفهم عامة المتأخرين لكان من المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه صلى الله عليه وسلم بل ويضمون إليه أحيانا جاه جميع الأنبياء المرسلين وكل الأولياء والشهداء والصالحين وجاه كل من له جاه [٣].

ولعل المتفحص لكلام الألبانى يجد فيه تأويل غير سائغ واستخفاف باللفظ الصريح الواضح، إذ أن نص الحديث بخلاف ذلك، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الصحابى الضرير أن يدعو بنفسه كما هو واضح فى رواية الترمذى المتقدمة (فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: "اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد" الحديث.

(١) انظر الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية لابن علان (٤/ ٣٠٣).

(٢) شفاء السقام (١٦١).

(٣) الآلبانى ص٧٥ المرجع السابق

ثم إن الروايات كلها متفقة على أن الذى دعا هو الرجل الضرير لا النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ولهذا ترجم له البيهقى فى "دلائل النبوة"[١]، يقول: باب ما جاء فى تعليمه الضرير ما كان فيه شفاؤه حين لم يصبر، وما ظهر فى ذلك من آثار النبوة.

ولذلك فقد هاجم هذا الرأى الذى نادى به الألبانى بعض مفكرى وعلماء العصر، ونحن نؤيده لأن معنى كلام الرسول ﷺ واضح ولا جدال فيه، ويفهمه كل ذى لب [٢]. حيث أن المعنى واضح وهو "وإن شئت دعوت: أى وإن شئت علمتك دعاء تدعو به ولقنتك إياه، وهذا التأويل واجب ليتفق أول الحديث مع آخره". وهو ما عبر عنه العلماء من أن (اللهم) ندائية، وما بعدها جملة دعائية، والمعطوف عليه بالفاء مقدر، والمعنى: يا الله اجعله شفيعاً أولاً، فأقبل شفاعته فى ثانياً ليتم به المقصود والله المحمود. [٣].

(١) دلائل النبوة (٦/ ١٦٦).

(٢) يقول : د. عيسى المانع الحميرى: أن هذا الأدعاء يعرض قائله للتهمة وسوء الظن به، وفيه تحميل لكلام النبى صلى الله عليه وآله وسلم وأحكامه مالا يحتمله، ولأن بعض الصحابة استعملوا ذلك بعد موته صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك يدل على أنهم لم يفهموا إلا المعنى الذى عليه الأمة، من جواز التوسل بذات النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وقد أكدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: "بنبيك محمد" ومحمد علم على الذات أى: ذات النبى صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يبق بعد هذا اجتهاد لمجتهد، حيث إنه لا اجتهاد مع النص، فقد نصت هذه الأحاديث الصحيحة على جواز التوسل بالذات قولاً واحداً، ويعضد هذا المفهوم أن الناس حين يأتون آدم يوم الفزع الأكبر، كان عليهم إذا أن يقتصروا على الدعاء باسم آدم، أو باسم نبى من الأنبياء، والله أقرب يومئذ من عبده، ولكن آدم يحيل للذى بعده، إلى أن يبلغ المستشفع سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم فيلبى طلبه. يراجع مؤلفه التأمل فى حقيقة التوسل ص١٨٩ – ١٩٩ ط١ دار قرطبة ٢٠٠١ م المرجع السابق

(٣) الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ٤/ ٣٠٣.

وبذا تبطل دعوى الألبانى ومن سار على نهجه من أن التوسل هو الدعاء،

الدليل الثانى :

من الأدلة أيضاً على أن التوسل بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم ثابت دون ريب أو شك، ما ورد عن أنس بن مالك رضى الله عنه، أن فاطمة بنت أسد عليها السلام – أم على بن أبى طالب عليه السلام – لما توفيت نزل النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى قبرها قبيل الدفن واضطجع فيه وقال: "الله الذى يحيى ويميت، وهو حى لا يموت، أغفر لأمى فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع عليها مدخلها، بحق نبيك، والأنبياء الذين من قبلى، فإنك أرحم الراحمين"(١).

وجه دلالة الحديث :

الحديث واضح فى أن الرسول توسل لأم على بن أبى طالب وهى فى قبرها و بذلك صار هذا الحديث حجة عامة على جواز التوسل مطلقاً بذات النبى صلى الله عليه وسلم فى حياته، وبمن مات من الأنبياء والمرسلين.

الدليل الثالث: جاء فى "دلائل النبوة" ما رواه البيهقى عن سعيد بن خثيم الهلالى، عن مسلم الملائى، عن أنس ابن مالك قال: جاء أعرابى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله لقد أتيناك وما لنا بعير يئط، ولا صبى يغط(٢) . والمعنى أنهم جدبوا فما من ماء يسقون فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى صعد

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير (٢٤/ ٣١٥)، رقم (٨٧١)، وفى المعجم الأوسط (١/ ١٥٢ – ١٥٣)، ورواه أبو نعيم فى حلية الأولياء (٣/ ١٢١)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٩/ ٢٥٧): فيه روح بن صلاح وثقة ابن حبان والحاكم، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. فهو ثقة عند ابن حجر كما تقدم عنه فى تعليق التغليق.

(٢) يئط: الأطيط صوت البعير المثقل. الغطيط: صوت النائم، كناية عن شدة الجوع.

المنبر، ثم رفع يديه على السماء فقال: "اللهم أسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً غدقاً[١]. طبقاً[٢]، عاجلاً غير رائث[٣]، نافعاً غير ضار، تملأ به الضرع، وتنبت به الزرع وتحيى به الأرض بعد موته، وكذلك تخرجون"، فوالله ما رد يديه إلى نحره حتى ألقت السماء بإبراقها، وجاء أهل البطانة يعجون: يا رسول الله الغرق الغرق، فرفع يديه إلى السماء، ثم قال: "اللهم حوالينا ولا علينا"، فانجاب السحاب عن المدينة حتى أحدق بها كالإكليل، فضحك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى بدت نواجذه .

قال الحافظ ابن حجر[٤].: "وإسناد حديث أنس وإن كان فيه ضعف لكنه يصلح للمتابعة". وقال ابن هشام فى "السيرة النبوية": وحدثنى من أثق به فذكره[٥].

قلت: قوله: "يستسقى الغمام بوجهه" أطلق البعض وأراد الكل، فتمثل ابن عمر بهذا البيت هو إقرار منه بجواز التوسل بالذات، إذ كلمه "بوجهه" لا تحتمل معنى دعائه، وإنما معنى الذات.

الدليل الرابع :

ما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي « أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال : قل : اللهم إني

(١) العلهز: هو شيء يتخذونه فى سنى المجاعة، يخلطون الدم بأبوال الإبل ثم يشوونه بالنار ويأكلونه. والفسلك الردئ من كل شيء.
(٢) الغدق: المطر الكبار القطر.
(٣) طبقاً: مائلاً للأرض مغطياً لها.
(٤) غير رائث: غير بطئ ومتأخر.
(٥) فتح البارى (٢/ ٤٩٥).

ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم » [١]

وجه الدلالة : في الحديث توسل بأمرين .

الأول : بالاعتراف بالذنب وهو يتضمن : الندم على فعل الذنب، والتوبة والإقلاع عن فعله .

الثاني : بالإيمان بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وهذان من أعمال القلب واللسان والجوارح الصالحة

١ – قوله صلى الله عليه وسلم في أحد الأدعية الثابتة عنه قبل السلام من صلاته صلى الله عليه وسلم « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خير لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خير لي » [٢]. . الحديث " [٣].

الدليل الرابع : روى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله تعالى عنه، قال "كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا جاءه السائل، أو طلبت إليه حاجة

(١) رواه البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام . ومسلم برقم ٢٧٠٥ في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر . والترمذي برقم ٣٥٢١، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء، وانظر : جامع الأصول حديث ٢١٨٦ .

(٢) رواه البخاري في التوحيد، باب السؤال بأسماء الله، ومسلم في الذكر والدعاء، باب ما يقول عند النوم وانظر جامع الأصول حديث ٢٢٥٦ ..

(٣) رواه البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام . ومسلم برقم ٢٧٠٥ في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر . والترمذي برقم ٣٥٢١، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء، وانظر : جامع الأصول حديث ٢١٨٦ .

قال: اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ما شاء"[1].

وجه الدلالة من هذا الحديث : أنه عليه الصلاة والسلام يحب توسل الناس به ووعد عليها بالأجر وقضاء الله على لسان نبيه ما شاءه مما سأله السائل، فالتشفع به أو بجاهه عند الله تعالى عظيم كخُلقهِ، وله المقام المحمود.[2].

الدليل الخامس : ما روى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: "من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إنى أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاى هذا، فإنى لم أخرج أشراً (افتخاراً)، ولا بطراً (إعجاباً)، ولا رياءً، ولا سمعة، وخرجت اتقاء سخطك، وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذنى من النار، وأن تغفر لى ذنوبى، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك"[3].

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١١٦/٢)، ورواه ابن عبد البرفى التمهيد (٢٢/ ٦٣ – ٦٦). وابن عدى فى الكامل فى ضعفاء الرجال (٣/ ٤٠٩)، والأصبهانى فى دلائل النبوة (١/ ١٨٤).

(٢) زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم (٤٤٥/٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١/ ٢٥٦)، رقم (٧٧٨)، وأحمد فى المسند (٣/ ٢١)، والطبرانى فى الدعاء (١/ ٩٩٠) وغيرهم، وقد حسنه جمع من الحفاظ منهم الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح (ص ٤٧١ – ٤٧٢)، والحافظ أبو الحسن المقدسى، شيخ الحافظ المنذرى كما فى الترغيب والترهيب (٢/ ٤٥٩)، والحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء (١/ ٢٩١)، والحافظ ابن حجر فى أمالى الأذكار (١/ ٢٧٢)، وقال الحافظ البوصيرى فى مصباح الزجاجة (٩٨/١): لكن رواه ابن خزيمة فى صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق، فهو صحيح عنده.

أما عن جرحه بسبب تدليسه فاعتمادهم فى ذلك على رواية تفرد بها تالف، متهم بالكذب، هو محمد بن السائب الكلبى لا ينبغى الاعتماد عليه، وقد توارد كثير من الحفاظ على ذلك تقليداً، أنظر كتاب رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، للشيخ الدكتور المحدث محمود سعيد ممدوح (ص ١٨١ – ١٩٠).

وجه الدلالة من الحديث

أن الحديث فيه ترغيب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للأمة فى التوسل إلى الله بجميع المؤمنين السائلين له، من الأنبياء والأولياء، أحياء كانوا أو أمواتاً. "والسائلون" هم المتضرعون إلى الله بخالص طوياتهم، وحسن إخلاصهم، أمواتاً كانوا أو أحياءً، وهؤلاء هم المتوسل بهم إلى الله تعالى.

وهناك العشرات من الأحاديث تدل على نفس المعنى [1] كما هو الثابت من أن الرسول الله ﷺ كان يستفتح بصعاليك المهاجرين"[2]. وغيرهما من أحاديث السنة بما لا حاجة لذكرها لقناعتى بما ذهبت إليه من تحقق الوسيلة فى السنة وقيامها بنفس الوظيفة التى وجدت عليها الآيات القرآنية .

وخلاصة القول :

(١) منها ما رواه البخارى عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد قال: رأى سعد رضى الله عنه أن له فضلاً على من دونه، فقال النبى ﷺ : "هل تنصرون إلا بضعفائكم" والحديث بالبخارى رقم ٢٨٩٦). (١).

قلتك فقد فقه الصحابى رضى الله عنه أن المكانة لها أثر بالغ ى التوسل والوسيلة، ولذا فإن منزلة النبى صلى الله عليه وسلم نافعة، وقبول دعائه مترتب على منزلته. وبهذا تدحض شبهة ابن تيمية ومن لف لفه بأن مكانة النبى صلى الله عليه وسلم ومنزلته لا علاقة لها بالتوسل.

وأخرج مثله أبو داود عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ابغونى "اطلبوا لى" الضعفاء، فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم" رواه أبو داود (٢٥٨٧)، والنسائى (٣١٧٩) والترمذى (١٧٠٢)، وأحمد (٥/ ١٩٨) وهو حديث صحيح. أما عن جرحه بسبب تدليسه فاعتمادهم فى ذلك على رواية تفرد بها تالف، متهم بالكذب، هو محمد بن السائب الكلبى لا ينبغى الاعتماد عليه، وقد توارد كثير من الحفاظ على ذلك تقليداً، أنظر كتاب رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، للشيخ الدكتور المحدث محمود سعيد ممدوح (ص ١٨١ – ١٩٠).

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير (٢٩٢/١)، وقال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٦٢/١٠): ورجال الرواية الأولى رجال الصحيح، ورواه البغوى فى شرح السنة (٢٦٤/١٤).

أن السنة النبوية قد حفلت بعشرات الأحاديث التى تثبت الشفاعة وتظهرها على وجه لا ينكرها أحد إلا من كان قليل فهم لمعانى العربية، وأن الوسيلة ثابتة تماماً للنبى ﷺ سواء كان حياً أم ميتاً حاضراً أم غائباً، وأن إذن النبى لأحد الصحابة بالدعاء المستجاب ماهو إلا تعبير صريح عن تحقق شفاعة النبى وإذنه كما فى حديث الأعمى .كما ترشدنا الأحاديث أن للنبى صلى الله عليه وسلم مكانة تنفع المؤمن، ولولا المكانة لما تحقق النفع بالواسطة الحقة وأنها حقيقة مهمة من حقائق الإيمان تقضى بها الحوائج وتنال بها الرغائب، وهو صلى الله عليه وسلم من أعظمها وأجلها قداسة.

المبحث الثالث :

إرتباط التوسل بالعقيدة

تمهيد :

يلزم بنا قبل التعرض لموضوع التوسل بيان وجه التفرقة بين مشيئة العبد ومشيئة الله أو بمعنى آخر إظهار معنى المشيئة فى حق الخالق وحق المخلوق.

وسوف يظهر لنا أن وجه التفرقة بين المشيئتين هو أن يقال فى وجه ضابط :- " أن مشيئة العبد إرادة بينما إرادة المخلق مشيئة " . وأن بين الإثنين عموم وخصوص فالمشيئة أعم من الإرادة وهو مما ظهر جلياً عند العلماء حيث انعقد الإجماع عند أهل السنة والجماعة من خلال عقائدهم على إثبات أن للحق سبحانه مشيئة ولخلقه مشيئة، إلا أن مشيئة خلقه لا تتم إلا بمشيئته عز وجل كما هو ثابت فى قوله تعالى : (وما تشاؤون إلا أن يشاء الله) [١].

ولكى يكون التعبير صحيح فما الفرق بين إرادة العبد ومشيئة الرب ؟ نجد الإجابة عند بعض العلماء حيث يرى أن : "إن المشيئة توجه الذات الإلهية نحو حقيقة الشيء ونفسه، اسماً كان الشيء أو صفة أو ذاتاً. بينما المشيئة) بينما الإرادة (تعلق الذات الإلهية بتخصيص أحد الجائزين من طرفى الممكن، أعنى وجوده أو عدمه، بخلاف المشيئة فإن متعلقها نفس الماهية من غير ترجح أحد جانبيها.. فعلى هذا إذا توجهت الذات الإلهية نحو صفة الإرادة واقتصت تعلقها بأحد طرفى الممكن كما هو مقتضاها، لا يبعد أن يسمى ذلك التوجه مشيئة الإرادة، فهذا الذى ذكرناه من التقدم الذاتى للمشيئة على الإرادة، وإمكان الاختلاف فى متعلق الإرادة دون المشيئة هو الفرق بينهما، وأما من جهة اتحادها بالنسبة إلى الهوية الغيبية الذاتية فعينهما سواء. [٢] .

---

(١) من سورة التكوير: الآية (٢٩).

(٢) انظر كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ٧٣٠ – ٧٣١)، والتعريفات (٢١٦)، وكتاب المسامرة (١٤٢).

وبناء على هذا فإن المشيئة أعم من الإرادة وأشمل ويصبح أن قوله تعالى (وماتشائون إلا أن يشاء الله) أى وما تريدون من شيئاً لا ينفذ إلا بمشيئة الله رب العالمين .

وتطبيقاً للإرادة من جهة العبد والمشيئة من جهة الرب ما جاء فى تفسير قوله تعالى (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) وقوله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ*أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ (١)

حيث أثبت المولى سبحانه الفعل للعبد وأثبته أيضاً لذاته العليا، فأما ما هو من فعل العبد فهو أن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ غرفة من تراب بيده ثم رماها، وهذا حقيقة فعل من البشر مرئى محسوس، وأما ما هو من فعل الرب سبحانه فهو أن تلك الغرفة ليس للبشر قوة على إيصالها إلى جميع أعين الأعداء، وقد وصلت لجميع أعينهم حتى أوقعت الهزيمة فيهم.

وبهذا تبين لنا أن هذه الوسائط سارٍ لها الحكم فى الدنيا من باب أولى، إذ ثبت لها ذلك فى يوم أشد من أيام الدنيا، وهو يوم غضب الرب، وتجلى الحق تجلياً أعظم على خلقه.

وقد اتفق العلماء على أن معيار قبول العمل إثنان تتحددان فى ضابطين :

أحدهما : أن يكون خالصا لوجه الله .

الثاني : أن يكون موافقا لسنة نبيه ﷺ .

ونحن لا نشك فى توافر الضابط الأول، إذ أن كل من توسل بالنبى إنما كان مخلصاً فى رجائه متيمناً قبول شفاعته، وإنما توافر الضابط الثانى محل نظر فقد أشكل فهمه على كثير من الناس، مما أوقع الكثير فى البدع مما قد تكون وسيلة تفضي إلى الشرك .

(١)الواقعة : ٦٣-٦٤

المطلب الأول : التوسل فى الأمور الإلهية

(أ) التوسل بالإيمان وبيان أنه من أشرف الوسائل

فقد أمر الله عباده بالإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر لقوله تعالى (ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) (١)

وأن رجلاً توسل فى دعائه بالإيمان فقال (اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد والرسول ﷺ فقال والذى نفسى بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى " (٢) .

الصلاة والصيام :

من أفضل الأعمال وانفعها واحبها إلى الله تعالى لقوله ﷺ وقد سئل عن احب الأعمال إى الله تعالى فقال " الصلاة على وقتها "

أما الصيام فقد روى النسائى فى سننه أن أبا إمامه أتى رسول الله ﷺ فقال يارسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة ؟ فقال عليك بالصوم فإنه لا مثل له " وروى البخارى ومسلم واللفظ له أن رسول الله ﷺ قال ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله تعالى، إلا باعد الله بذلك وجهه عن النار سبعين خريفاً "(٣)،وصح أيضاً أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك " (٤)

---

(١) آل عمران : ١٦

(٢) رواه الترمذى وحسنه ويراجع جامع الأصول فى أحاديث الرسول مطبعة الملاح تعليق عبد القادر الأرنؤطى ١٧٠/٤

(٣) البخارى ٣١/٤

(٤) صحيح البخارى ٣٠/٣ و مسلم ١٥٧/٣ والخلوف بضم الخاء المعجمة واللام : تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام .

الصدقة :

من الوسائل الإيمانية للحصول على المرغوب الدنيوى والأخروى وللنجاة من الموهوب فى الدنيا والآخرة الصدقات حيث ورد عن رسول الله ﷺ إتقوا النار ولو بشق تمرة وقال : " الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار .

الحج والاعتمار

من اعظم القرب واشرف الوسائل الحج إلى بيت الله والدليل على ذلك أن الحج المبرور ليس جزاء إلا الجنة وأن من حج ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه كما صح ذلك عن النبى ﷺ فى رواية الشيخان.

وكذا الاعتمار وهو زيارة البيت للطواف به والسعى بين الصفا والمروة فهى وسيلة للقرب من الله واستجابة الدعاء وتكفير الذنوب لما ورد فى الصحيح عن الرسول ﷺ تابعوا بين االحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفى الكير خبز الحديد والذهب والفضة .

الجهاد فى سبيل الله

وهو من أعظم القرب إرتباطاً بالعقيدة وللفوز بالقرب بالله ولما ورد فى الصحيحين (إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله) [١] ويقول مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة [٢]. ويقول مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل فى سبيل أفضل من عبادة الرجل ستين سنة .

ويقول " رباط يوم فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وماعليها والروحة يروحها العبد فى سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها . [٣] .

تلاوة القرآن الكريم

---

(١) البخارى ١٥٣/٩ ومسلم ٣٧/٦٦

(٢) رواه الدارمى الجهاد / ٧ .

(٣) رواه البخارى ٤/ ٤٣ المرجع السابق

ومن أشرف الوسائل تلاوة القرآن الكريم فإن قراءة الحرف بعشر حسنات لحديث الترمذى عن ابن مسعود، كما أن مجالس قراءته وتعليمه وتعلمه من أجل الوسائل لما ورد فى الصحيح " خيركم من تعلم القرآن وعلمه [١] .

الذكر والتسبيح

من أجل الوسائل وأنفعها قربة لله تسبيح الله مثل قوله " لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيئ قدير " وقوله سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم . وقد بين الله قيمة هذا العمل باعتباره من انجح الوسائل الإيمانية " مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت [٢].فى الصحيح من صلى علىّ صلاة واحدة صلى الله بها عشراً

الصلاة على النبى ﷺ

والصلاة على النبى من اعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات وقضاء الحاجات لقول الرسول ﷺ من صلى علىّ صلاة واحدة صلى الله بها عشرا وقوله للذى قال له : اجعل لك صلاتى كلها " إذاَ تكفى همك ويغفر لك ذنبك [٣].

الاستغفار

وهو طلب المغفرة من اللهعز وجل بلفظ استغفر الله أو اللهم اغفر لى وهى من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم لثناء الله عليهم بقوله (والمستغفرين بالأسحار [٤] .

الدعاء

وهو سؤال الله الخير وهو مخ العبادة وبه تقضى حوائج الناس لقوله تعالى (إدعونى استجب لكم)[٥] .

---

(١) البخارى ٦/٢٣٦

(٢) البخارى ٨/ ١٠٧

(٣) رواه أحمد والترمذى (قيامة ٢٣) وصححه

(٤) آل عمران: ١٧

(٥) غافر : ٦٠

وقال ﷺ: إن الله حى كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين) [١].

دعاء المؤمنين

فإن دعاء المؤمنين من الوسائل التى ترفع الدرجات وتقضى الحاجات وهو ما دل عليه حديث الأعمى أدعوا الله لى أن يرد بصرى فدعا له الرسول فرد بصره، وعاد كأن لم يمسسه ضر [٢]

(ب) : التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة :

وذلك بأن يتوسل الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى بعمل صالح عمله فى حياته، كأن يقول: اللهم إنى أسألك بحبى لك، أو بإخلاصى فى طاعتك، أن تعطينى كذا.

فالتوسل هنا إنما إلى الله تعالى بالإيمان به وطاعته، ويدخل في ذلك كل عمل قام به العبد بقلبه أو لسانه أو جوارحه خوفا من الله أو رجاء له وحده – لا لدافع آخر.

كيفيته : هو أن يتذكر الداعي عملا صالحا قام به لله وحده لا لدافع آخر . بعد أن يتذكر العمل يتوجه إلى ربه متوسلا بهذا العمل في أن يعطيه أو يدفع عنه .

مثاله : كأن يقول المسلم : اللهم بإيماني بك واتباعي لرسولك اغفر لي، أو يقول : اللهم إنك تعلم بأني عملت كذا – ويسمي عملا قام به لله وحده – اللهم إن كنت عملته رجاء لثوابك وخوفا من عقابك فأعطني كذا أو ادفع عني كذا، ونحو ذلك .

أولا : الأدلة من الكتاب : منها :

١ – قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[٣] .

(١) أبو داود : ٣٤٢/١ والترمذى دعوات / ١٠٤

(٢) رواه الترمذى ٩/ ١١٨ وأحمد ١٣٨/٤ وابن ماجه إقامه ١٨٩

(٣) آل عمران : ١٦

٢ – وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (١)

٣ – وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٢) .

وجه الدلالة : في الآيات الثلاث توسل بالإيمان، وهو عمل صالح من أعمال القلب موافق، بالعقيدة وذلك دليل على مشروعية التوسل بالعمل الصالح .

ومن السنة :

ما رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي « أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال : قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم » (٣)

وجه الدلالة : في الحديث توسل بأمرين .

الأول : بالاعتراف بالذنب وهو يتضمن : الندم على فعل الذنب، والتوبة والإقلاع عن فعله .

الثاني : بالإيمان بأنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وهذان من أعمال القلب واللسان والجوارح الصالحة .

(ج) التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته

ويقصد به التوسل إلى الله بالاسم المقتضي لمطلوبه أو بالصفة المقتضية له (٤) كأن يقول المتوسل: اللهم إنى أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت وحدك لا شريك

---

(١) المؤمنون : ١٠٩

(٢) سورة آل عمران الآية ٥٣

(٣) رواه البخاري في صفة الصلاة، باب الدعاء قبل السلام . ومسلم برقم ٢٧٠٥ في الذكر والدعاء، باب استحباب خفض الصوت بالذكر . والترمذي برقم ٣٥٢١، والنسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء، وانظر : جامع الأصول حديث ٢١٨٦ذ

(٤) يراجع الجواب المختار ص ٥٠

لك، أن ترزقنى كذا، وأن تعطينى كذا..أو كأن يقول في دعائه : اللهم إني أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العليا أن تعطيني كذا أو تدفع عني كذا، أو يقول : اللهم إني أسألك بأنك أنت الرحمن الرحيم، اللطيف الخبير أن تعافيني، أو يقول : اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن ترحمني وتغفر لي[١] . ونحو ذلك لقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢]

وجه الدلالة :

أن الله سبحانه وتعالى : أمرنا أن ندعوه متوسلين بأسمائه الحسنى، وأسماؤه – سبحانه – متضمنة لصفاته، فتكون داخلة في هذا الطلب .

وبذلك يتضح دلالة الآية على المشروعية العقدية بالتوسل سواء كان بأسمائه أم صفاته .وقد ثبت هذا النوع فى السنة المطهرة أحاديث كثيرة[٣] توسل فيها النبى صلى الله عليه وسلم بأسمائه تعالى وصفاته، وأمر أصحابه أن يتوسلوا بها، منها:

الحديث الأول : حديث أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر قال: "ياحى ياقيوم، برحمتك أستغيث"[٤].

الحديث الثانى : مارواه عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما أصاب أحداً قط همّ ولا حَزَن فقال: اللهم إنى عبدك، ابن عبدك،

---

(١) يراجع : التوسل للألباني ص ٣٢ . وقاعدة جليلة ص ٥٢، ٥٣

(٢) سورة الأعراف الآية ١٨٠ .

(٣) وقد ورد هذا النوع كثير مثل « اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الحلق أحيني ما علمت الحياة خير لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خير لي » سنن النسائي السهو (١٣٠٦)، مسند أحمد (٢٦٤/٤).(. . . الحديث " أخرجه النسائي في السهو، باب نوع آخر من الدعاء وإسناده جيد . انظر : جامع الأصول حديث ٢١٨٤ .

(٤) رواه الترمذى (٥٣٩/٥). ومنها : ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كربه أمر يقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث » أي إذا أهمه والحديث أخرجه الترمذي في الدعوات، باب ٩٩ انظر : جامع الأصول حديث ٢٢٩٧ .

ابن أمتك، ناصيتى بيدك، ماضٍ فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبى، ونور صدرى، وجلاء حزنى، وذهاب همى، إلا أذهب الله همّه وحُزنه، وأبدله مكان همه فرجاً"[(١)].

هذه نبذة يسيرة من أحاديث كثيرة كلها تدل على المشروعية العقدية بالتوسل إلى الله باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته ؛ ذلك أنها من قول الرسول صلى الله عليه وسلم أو إقراره، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [(٢)] ويقول سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [(٣)] وبذلك دلت هذه الآيات على المشروعية العقدية بالتوسل بالأسماء الحسنى والصفات العليا .

وهذا النوع لم يختلف فيه أحد على إرتباطه بالعقيدة الصحيحة .

المبحث الرابع :
التوسل المؤدى إلى الشرك

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٩١، ٤٥٢)، والحاكم (٥٠٩/١) وصححه.
(٢) سورة الحشر الآية ٧
(٣) سورة المائدة الآية ٩٢

تعريفه : هو تقرب العبد إلى الله . بما لم يثبت في الكتاب ولا في صحيح السنة أنه وسيلة بل ثبت عدم مشروعيته وإنكاره ويدخل فى ذلك فى دائرة المحظور بما يصف فاعله بالشرك والخروج من الملة .

وله أنواع :

النوع الأول : التوسل بوسيلة نص الشارع على بطلانها :

مثاله : توسل المشركين بآلهتهم .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾[1]

النوع الثاني : التوسل بدعاء الأولياء والصالحين :

ومن ذلك ما يلي :

١ – التوسل إلى الله بذات مخلوق . مثاله : أن يقول المتوسل :

اللهم إني أسألك بنبيك– ولا يعني إلا ذاته– أن تعطيني كذا أو تدفع عني كذا .

٢ – التوسل إلى الله بجاه مخلوق أو حقه ونحوهما .

مثالي : أن يقول المتوسل : اللهم إني أسألك بجاه نبيك أو بحق نبيك أن تعطيني كذا أو تدفع عني كذا .

٣ – التوجه إلى ميت طالبا منه أن يدعو الله له كمن يأتي إلى الميت من الأنبياء أو الصالحين ويقول له سل الله لي أو ادع الله لي أن يعطيني كذا أو يدفع عني كذا ٤ – أن يسأل العبد ربه حاجته مقسما بنبيه أو وليه أو بحق نبيه أو وليه ونحو ذلك مثاله : أن يقول : اللهم إني أسألك كذا بوليك فلان أو بحق نبيك فلان ويريد الإقسام أو يقول : اللهم إني أقسمت عليك بفلان أن تقضي حاجتي

(١) سورة الزمر الآية ٣

وهذا النوع من التوسل قالوا أنه ذريعة إلى الشرك وقد يصل إلى الشرك الأكبر إن اعتقد في المتوسل به شيئا من النفع أو الضر دون الله لقوله تعالى (إنه من يشرك الله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) [١]

لقوله صلى الله عليه وسلم : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » [٢]

وقال صلى الله عليه وسلم : (« وإياكم ومحدثات الأمور » [٣] .

النوع الثالث : النذور للأولياء والصالحين

وفى ذلك يعبر عنه ابن القيم قائلاً : [٤] .(لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها، كانت طرقها وأسبابها تابعة لها) إلي أن قال : (فإذا حرم الرب تعالى شيئا وله طرق ووسائل تفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها تحقيقا لتحريمه ومنعا أن يقرب حماه ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليها لكان ذلك نقضا للتحريم) . ولذا جاءت أدلة كثيرة في الكتاب والسنة تدل دلالة قاطعة على أن سد الذرائع إلى الشرك والمحرمات من مقاصد الشريعة ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٥] فنهى سبحانه وتعالى المسلمين عن سب آلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله مع أنها باطلة لئلا يكون ذلك ذريعة إلى سب المشركين الإله الحق سبحانه انتصارا لآلهتهم الباطلة جهلا منهم وعدوا .

ومن ذلك نهيه صلى الله عليه وسلم عن بناء المساجد على القبور ولعن من فعل ذلك ؛ لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثانا والإشراك بها .

هذا النوع من التوسل محذورا من وجهين :

---

(١) المائدة :٧٢

(٢) قاعدة جليلة ص ٣٣ والقول الجلي ص ٢٩ وفتاوى اللجنة الدائمة ج١ ص ٣٤٧ .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع باب النجش، ومسلم في الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، وأبو داود في السنة باب لزوم السنة وانظر : جامع الأصول حديث ٧٥ (المتن والحاشية) .

(٤) إعلام الموقعين ج ٣ ص ١٣٥

(٥) سورة الأنعام الآية ١٠٨

الأول : فيه شبه بتوسل المشركين بآلهتهم وقد ذمه الله حيث قال سبحانه : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (١)
ففى الأية بيان من سبحانه بأمرين :
١ – حيث عاب عبادة الأولياء من دونه .
٢ – عاب محاولة القربى إليه بالمخلوق، والتوسل بالذات أو بدعاء الميت . قال شيخ الإسلام(٢) عندما سئل عن رجلين تناظرا– فقال أحدهما لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك :
فقال : (الحمد لله رب العالمين إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة يبلغنا أمر الله فهذا حق، وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم يسألونه ذلك ويرجعون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار) .
الثاني : فيه انتقاص لله سبحانه وتعالى وتنزيل له إلى منزلة المخلوق الذي يحابي في فضله وحكمه فيعطي من له وسيط أكثر مما يعطي غيره أو يحرم من ليس له وسيط لجهله بحاله وبعده عن سماع مقاله والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (٣)

النوع الرابع : الاستشفاع والدعاء على أضرحة الصالحين

(١)) الزمر الآية ٣
(٢)) الفتاوى، ج ١، ١٢١– ١٢٣ .
(٣)) البقرة : ١٨٦

أن في هذا النوع من التوسل دعاء ميت– وذلك عند التوسل بدعاء الميت– وقد ورد النهي عنه والوعيد عليه إذ هو شرك أو ذريعة إلى الشرك [١] كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴾ [٢]

﴿ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾[٣]

فبين سبحانه أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة – أي : ينكره– .

ويعادي من فعله كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ فكل ميت أو غائب لايسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر ولهذا لم ينقل عن أحد من الصحابة– رضي الله عنهم– ولا عن غيرهم من السلف أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته، بل العكس نراهم عام الرمادة توسلوا بدعاء العباس رضي الله عنه ؛ لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز التوسل بأحد بعد وفاته لتوسل عمر والسابقون الأولون بالنبي صلى الله عليه وسلم .

قال شيخ الإسلام– بعد أن ذكر بعض الأدلة في النهي عن غير الله– : (ومثل هذا كثير في القرآن ينهى أن يدعى غير الله لا من الملائكة ولا الأنبياء ولا غيرهم، فإن هذا شرك أو ذريعة إلى الشرك بخلاف ما يطلب من أحدهم في حياته من الدعاء والشفاعة فإنه لا يفضي إلى ذلك، فإن أحدا من الأنبياء والصالحين لم يعبد في حياته بحضرته، فإنه ينهى من يفعل ذلك بخلاف دعائهم بعد موتهم فإن ذلك ذريعة إلى الشرك بهم)[٤]

---

(١)) قاعدة جليلة ص ٣٣، ٣٤ .

(٢)) سورة فاطر الآية ١٣

(٣)) سورة فاطر الآية ١٤

((٤) مجموع الفتاوى ج ١، ص ٠ ٣٣ .

وقال أيضا : "فإن دعاء الملائكة، والأنبياء بعد موتهم وسؤالهم والاستشفاع بهم في هذه الحال هو من الدين الذي لم يشرعه الله ولا ابتعث به رسولا ولا أنزل به كتابا ولا فعله .

النوع الخامس : سؤال الله بجاه فلان

أن هذا النوع من التوسل بالجاه أو الحق ونحوهما وهو باطل من ثلاثة وجوه :

الأول : أنه توسل بعمل الغير، ذلك أن المنزلة والجاه إنما اكتسبها الإنسان بعمله، وعمل الغير مختص به فلو توسل به غيره كان قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سببا لنفعه، قال تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (١) .

وقال شيخ الإسلام : (قول السائل لله تعالى : (أسألك بحق فلان وفلان من الملائكة والأنبياء والصالحين وغيرهم أو بجاه فلان) يقتضي أن هؤلاء لهم عند الله جاه وهذا صحيح، ولكن ليس نفس مجرد قدرهم وجاههم مما يقتضي إجابة دعائه إذا سأل الله بهم حتى يسأل الله بذلك، بل يكون قد سأل بأمر أجنبي عنه ليس سببا لنفعه) (٢).

الثاني : أن في التوسل بمنزلة أو حق الغير اعتداء في الدعاء، والاعتداء في الدعاء محرم قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾(٣).

قال شارح الطحاوية : (فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء هذا السائل فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعائي، وأي مناسبة وأي ملازمة، وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى : { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة، لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن أحد من الأئمة، والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع لا على الهوى والابتداع) .

(١)) سورة النجم الآية ٣٩

(٢)) الفتاوى، ج ١، ص ٢١١، ٢١٢

(٣)) سورة الأعراف الآية ٥٥

الثالث : أن السؤال بحق فلان يتضمن أن للمخلوق حقا على الخالق وليس على الله حق إلا ما أحقه على نفسه بوعده الصادق .

النوع السادس : سؤال الله تعالى بحق فلان

و هذا النوع من التوسل سؤال العبد ربه حاجته مقسما بمخلوق .

وهذا فيه محذور من وجهين :

الأول : أن فيه إقساما بغير الله والإقسام بغير الله على المخلوق لا يجوز قال صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت » (١)

. بل عده الرسول صلى الله عليه وسلم من الشرك، قال صلى الله عليه وسلم : « من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك » (٢)

فكيف بالإقسام بالمخلوق على الخالق، إنه ليس شركا فقط بل هو تقرب إلى الله بالشرك، والتقرب إلى الله إنما يكون بما يرضيه لا فيما يسخطه .

قال شارح الطحاوية : (وإن كان مراده الإقسام على الله بحق فلان فذلك محذور أيضا ؛ لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز .

وقال ابن تيمية "وأما القسم الثالث مما يسمى توسلا، وهو الإقسام على الله عز وجل بالأنبياء والصالحين أو السؤال بأنفسهم، فإنه لا يقدر أحد أن ينقل فيه عن النبي صلى الله عليه وسلم شيئا ثابتا لا في الإقسام أو السؤال به ولا في الإقسام أو السؤال بغيره من المخلوقين، وقد ثبت أنه لا يجوز القسم بغير الله لا بالأنبياء ولا بغيرهم، فإذا لم يجز أن يحلف بها الرجل ولا يقسم بها على مخلوق فكيف يقسم بها على الخالق جل جلاله" ؟ (٣) .

---

(١)) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، انظر : جامع الأصول حديث ٩٢٨١

(٢)) أخرجه الترمذي عن سعد بن عبيدة برقم ١٥٣٥ في الأيمان والنذور، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله وقال : هذا حديث حسن، انظر : جامع الأصول حديث ٩٢٧٨ .

(٣)) الفتاوى ج ١ ص ١٩١

الوجه الثاني : أن فيه تعظيما للمخلوق :

ذلك أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به وبما أن المحلوف به يكون أعظم من المحلوف عليه فإن في هذا القسم رفعا للمخلوق فوق منزلة الخالق، ومساواة المخلوق بالخالق شرك فكيف لو جعلناه أعظم منه ؟

قال النووي : (قال العلماء : الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به، وحقيقة العظمة مختصة بالله .[١]

النوع السابع : الذبائح على أرواح الأولياء

إن مما تعارف عليه جهلة المسلمين اليوم الذبح على أضرحة الأولياء وعلى المشاهد والقباب فى المواسم التى تقام باسم أؤلئك الصالحين من وقت إلى وقت فكل هذا ضلال وبال وليس مما شرعه الله تعالى لعباده التوسل به إليه بداً وإنما هو عمل من أعمال الجهلية الأولى وشرك فى عبادة الله وتنديد حرمه الله تعالى بقوله﴿واعبدوا الله ولا شركوا به شيئاً ﴾ [٢] وبقوله ﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعملون ﴾ [٣]

المبحث الخامس :

(١)) شرح صحيح مسلم ج ١١ ص ١٠٥

(٢)) النساء : ٣٦ ١٠٥

(٣)) البقرة :٢٢

موقف العلماء من التوسل بالنبى والأولياء الصالحين .

تباينت آراء العلماء فى التوسل بالأموات الصالحين واعتباره نوع من أنواع الشرك ولذا فقد منعوه وسوف نعرض لوجهة كل منهم فيما يلى :-

الفريق الأول : يرى هذا الفريق أن التوسل إنما يجوز بالصالح الحى فقط حيث يرون أن العقيدة واحدة لا تتغير من آدم إلى محمد صلى الله عليه وسلم . (١)

٣ – قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (٢)

وجه الدلالة : يخبر الله سبحانه وتعالى نبيه بأن المخلفين من الأعراب سيعتذرون بأموالهم وأهليهم، ويطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار لهم وهو توسل بدعائه صلى الله عليه وسلم، وهذا الطلب – وإن كان مصانعة وتقية – فإنه يدل على مشروعية التوسل بدعاء الصالح الحي من وجهين :

الأول : أنهم طلبوه ولولا علمهم بمشروعيته لما طلبوه .

الثاني : عدم اعتراض النبى ﷺ ولو كان غير مشروع لاعترض على طلبهم مما يدل على مشروعية هذا النوع من التوسل والله أعلم .

ومن السنة

الحديث الأول : عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن لي وقال : "لا تنسنا يا أخي من دعائك »(٣)

وفي رواية قال : « أشركنا يا أخي في دعائك، قال عمر : فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا » (١) .وجه الدلالة : في الحديث دلالة على أمرين :

---

(١) انظر تفسير النسفي ج ٢ ص ١٢٩، وروح المعاني ج ١٣ ص ٥٥، ٥٦ وتفسير ابن سعدي ج ٤ ص ٩٩ .

(٢) سورة الفتح الآية ١١ ويراجع تفسير ابن سعدي ج ٧ ص ١٧٧ والتوصل ص ١٤٧

(٣) سنن الترمذي الدعوات (٣٥٦٢)، سنن أبي داود الصلاة (١٤٩٨)، سنن ابن ماجه المناسك (٢٨٩٤)، مسند أحمد (٢٩/١)

الأول : على مشروعية التوسل بدعاء الصالح الحي حيث أكد صلى الله عليه وسلم على عمر أن يدعو له في قوله : (« لا تنسنا يا أخي من دعائك » و أقواله صلى الله عليه وسلم من السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع بعد كتاب الله . .

الحديث الثاني : عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة من باب كان نحو باب دار القضاء– ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب– فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما ثم قال : يا رسول الله هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله يغيثنا . فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم أغثنا، اللهم أغثنا، اللهم أغثنا .

قال : أنس ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال : فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت فلا والله ما رأينا الشمس ستا، ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة– ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب– فاستقبله قائما فقال : يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا، قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ثم قال : اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر، قال : فأقلعت وخرجنا نمشي في الشمس »

وجه الدلالة : يفيد الحديث أن المسلمين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابهم جدب فتقدم أحدهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم طالبا منه أن يدعو الله أن يغيثهم، فدعا الله فأغيثوا، ثم تقدم إليه هو أو غيره طالبا أن يدعو الله أن يمسكه عنهم فدعا الله فانجاب السحاب عن المدينة . كل هذا يدل على مشروعية التوسل بدعاء الصالح [٢] الحي لا بذاته أو جاهه، إذ لو كان ذلك مشروعا لأرشدهم

---

(١) رواه أبو داود برقم ١٤٩٨ في الصلاة، باب الدعاء، والترمذي برقم ٣٥٥٧ في الدعوات، باب ١٢١

(٢) صحيح البخاري الجمعة (١٠١٣)، صحيح مسلم صلاة الاستسقاء (٨٩٧)، سنن النسائي الاستسقاء (١٥٢٨)، سنن أبي داود الصلاة (١١٧٤)، سنن ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٨٠)، مسند أحمد (٣/٢٧١).

صلى الله عليه وسلم إليه عندما شكوا الجدب ولما احتاج منهم المجيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة، إذ التوسل بالجاه أو الذات لا يحتاج إلى ذلك .

الثاني : أن التوسل بدعاء الصالح كما يكون بدعاء الأعلى يكون بدعاء الأدنى حيث طلب صلى الله عليه وسلم وهو الأعلى من عمر أن يدعو له، وفيه دلالة أيضا على مبلغ حرصه صلى الله عليه وسلم على الخير وعلى تعليم أمته إياه .

ويفهم من هذا الفريق أن الحياة شرط أساسى لقبول الدعاء وإلا ما ذهب الأعمى إلى رسول الله ليرد إليه بصرة وأكتفى بجاه النبى أو ذاته .

الحديث الثالث : عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه : « أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال : ادع الله أن يعافيني، فقال : إن شئت دعوت لك وإن شئت أخرت ذاك فهو خير . (وفي رواية : وإن شئت صبرت، فهو خير لك)، قال : فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن وضوءه ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في) قال : ففعل الرجل فبرأ » [1]

وجه الدلالة :

الحديث يدل على مشروعية التوسل بدعاء الصالح الحي من وجوه :

أحدها : أن الأعمى أتى النبي صلى الله عليه وسلم شاكيا ما هو فيه من ضر، وسأله أن يدعو له ولولا علم عدم مشروعيته لما أتى وسأل .

الثاني : أن الرسول صلى الله عليه وسلم خيره بين الصبر وبين الدعاء ثم أقره حيث أصر على الدعاء، ولو لم يكن مشروعا لما خيره ثم أقره .

الثالث : دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له، ويفهم من أمور منها :

---

(١) أخرجه أحمد في المسند برقم ١٧٢٤٠، ورقم ١٧٢٤١، انظر المسند ج ٢٨ ص ٤٧٨، ٤٧٩ والترمذي برقم ٣٥٧٣ في الدعوات، باب من أدعية الإجابة وإسناده صحيح، وقد صححه غير واحد من العلماء– انظر : جامع الأصول حديث ٢٣٧٥ (المتن والحاشية) .

١ – قوله صلى الله عليه وسلم : « إن شئت دعوت لك وأن شئت صبرت »[١] ثم قول الأعمى– فادعه .

٢ – تعليمه دعاء يدعو به يكون بجانب دعاءه صلى الله عليه وسلم وما تضمنه من قوله . . . « اللهم فشفعه في » وهذا لا يكون إلا إذا كان صلى الله عليه وسلم داعيا له .

من كل ما ذكرنا يتضح أن الحديث يدل دلالة صريحة على مشروعية التوسل بدعاء الصالح الحي، أما ما ورد في الحديث من قوله (بنبيك) فالمراد منه بدعاء نبيك بدليل قوله :

إن شئت دعوت لك، وقوله « اللهم فشفعه في »

الحديث الرابع : عن أنس بن مالك رضي الله عنه « أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا . قال : فيسقون » [٢] وقد روي عن ابن عمر أن هذا الاستسقاء كان عام الرمادة [٣] .

وجه الدلالة : يفيد الأثر أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عام الرمادة استسقى بالعباس بن عبد المطلب– أي بدعائه– مثل ما كانوا يعملون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، طلبوا منه أن يدعوا الله أن يغيثهم، ويؤكد ذلك الواقع فقد أخذ يدعو (٤) وهم يؤمنون– ولو كان المراد بجاهه لاختار جاه الرسول صلى الله عليه وسلم فهو أعظم، لكن نظرا لأنه بالدعاء والدعاء لا يمكن من الرسول صلى الله عليه وسلم لوفاته فاختار لذلك التوسل بدعاء

العباس وقد أقره الصحابة على ذلك فكان إجماعا، والإجماع حجة قاطعة عند الجمهور .

(١) سنن الترمذي الدعوات (٣٥٧٨)، سنن ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٥).
(٢) رواه البخاري برقم ١٠١٠ في كتاب الاستسقاء باب ٣
(٣) انظر : فتح الباري ج ٢ ص ٤٩٧ .

فتأكد بذلك مشروعية التوسل بدعاء الصالح الحي لا بجاهه أو ذاته .

الفريق الثانى :

يرون أنه كما يجوز التوسل بالرجل الصالح الحى يجوز أيضاً به ميتاً فلافرق فى الصلاح بين الحياة والموت ومن ثم فإنهم يرون أن القول بقبول الوسيلة من الأحياء فقط ضلال وزيغ عن الحق لأن تأثير النبى ﷺ لا ينقطع بوفاته .

ويدللون على صحة أقوالهم بأنه لا يستطيع أحداً من المسلمين أن ينسب أى تأثير ذاتى فى الأشياء لغير الواحد الأحد جل جلاله ومن اعتقد خلاف ذلك يكفر بإجماع المسلمين كلهم فمناط التوسل به أو بآثاره ﷺ ليس فى إسناد أى تأثير إليه والعياذ بالله تعالى وإنما المناط كونه ﷺ أفضل الخلائق عند الله على الإطلاق وكونه رحمة اله المهداة للبشرية وهو المعنى الذى من أجله توسل به الأعمى فى رد بصره .

ومما يدل على عدم مخالفة هذا للعقيدة ما ثبت عن الصحابة يتوسلون بأهل الصلاح والتقوى وأهل بيت النبوة فى الاستسقاء وهو ما أجمع عليه جمهور الأمة فلا مجال إذ للتفرقة بين حياة الموت فى نفى تحقق الوسيلة .

وقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بما يلى :-

الحديث الأول : قوله تعالى : ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء ولكن لا تشعرون) [1]

وجه الدلالة من الآية :

فقد بينت هذه الآية أن المقتلول فى سبيل الله تعالى حى وليس بميت، لأن الموت ليس بفناء بل هو محض انتقال من دار إلى دار، ومن ثم فإن كرامة المرء لا تنقطع بموته .

وفى ذلك يقول أبو جعفر الطبرى :- ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله هو ميت فإن الميت من خلقى من سلبته حياته وأعدمته حواسه فلا يلتذ لذة ولا يدرك نعيماً، فإن

(١) البقرة : ١٥٤

من قتل منكم ومن سائر خلقى فى سبيلى، أحياء عندى فى حياة ونعيم وعيش هنى ورزق سنى فرحين بما آتيتهم من فضلى، وحبوتهم به من كرامتى [١] .

ويقول السيوطى : فى " بشرى الكئيب " قال العلماء : الموت ليس بعدم محض،ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن " [٢] .

وفى هذا يقول الإمام الغزالى رحمه الله (فى الإحياء) الذى تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط، وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة [٣].

الحديث الثانى : إذا ثبت هذا فى حق الشهداء فما بالك بالأنبياء وهم أرفع وأعلى شأناً فإنهم أولى بالتوسل وهم فى قبورهم أحياء فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ما من أحد يسلم على إلا ردّ الله علىّ روحى حتى أردّ عليه السلام [٤]

وجه الدلالة من الحديث :

أن الحديث واضح الدلالة فى أن الأنبياء أحياء فى قبورهم بحكم التكريم والتشريف لا التكليف .. فقد انتقلوا من الحياة الدنيا إلى دار الأخرة فشرفهم الله بالحياة البرزخية لتكون عبادتهم إلهامية لا تكليفية كعبادة الملائكة .

ويفهم من الحديث السابق أن رد الروح كانت سابقة عقب دفنه لا أنها تعاد ثم تنزع ثم تعاد وأن أمور الآخرة لا تدرك بالعقل وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة .

وعلى هذا فإن الأنبياء أحياء فى قبورهم حياة برزخية أفضل من حياة الشهداء وأجسادهم لا تبلى ولا تفنى والإجماع منعقد على ذلك .

وبمراجعة كلا الفريقين السابقين :

---

(١)) تفسير الطبرى : ٤٢/٢

(٢)) الحاوى للفتاوى للسيوطى ٢/ ١٤٧

(٣)) إحياء علوم الدين ٤٩٣/٤

(٤)) رواه أبو داود رقم ٢٠٣٤ وأحمد ٥٢٧/٢ والبيهقى فى السنن الكبرى ٢٤٥/٥ رقم ١٠٠٥٠

نجد أن الفريقين قد استدلوا بأدلة صحيحة مقبولة لا مطعن فيه وإننا لا نرى رأى يرجح على آخر وأن التوفيق بين الرأيين أولى من إهدار أحدهما وأن هدف الفريق الأول إنما هو مخافة الشرك وتقديسه من دون الله القائل(وإذ سألك عبادى عنى فإنى قريب) ولا يوجد أحد يسأل الواسطة لذاتها .ويبقى جلياً أن الفرق بين المسلم والمشرك أن المسلم يسأل بالواسطة المشروعة المأذون بها من الله بينما الكافر يسأل بالواسطة غير المشروعة، وأن الإجماع منعقد أن التوسل مجرداً عن إذن الله كفر، فالوسيلة لا تملك الضرر ولا النفع بذاتها .، وهو أمر بديهى يعلم من أن المقصود هى الذات العلى وما النبى أو الميت الصالح سوى واسطة استمدت قوتها وبركتها واحترامها من ربها فكيف يمكن استبعاد الرب وسؤال العبد .

وأن القول باستبعاد مكانة الصالح بموته إنما ينسجم لو كان الموت فناء، وهو غير صحيح لتعارضه مع النصوص ويبقى الرأى الثانى أولى بالاعتبار لأن الأخذ بالرأى الأول إهدار للنصوص الصحيحة إلا إذا كان مقصد الفريق الأول خوف الشرك وإنصراف التقديس للميت من دون الله .

الخاتمة :

إليك بعض النتائج التي توصلت إليها من هذا البحث المتواضع .

من خلا ل دراستي للتوسل والموقف العقدى منه توصلت إلى نتائج هامة منها– ما يلي :

النقطة الأولى : أن التوسل في أصل اللغة هو : التقرب إلى المطلوب .
وأن الوسيلة : في الأصل : ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به .
النقطة الثانية : أن التوسل في الشرع : هو التقرب إلى الله تعالى بما شرعه في كتابه أو على لسانه رسوله صلى الله عليه وسلم وأن الوسيلة هي : ما يتقرب به إلى الله رجاء حصول مرغوب أو دفع
مرهوب من فعل الواجبات والمستحبات أو ترك المنهيات .
النقطة الثالثة : أن الوسيلة تكون موافقة للعقيدة الإسلامية متى وافقت الكتاب وصحيح السنة وتكون شرك أو زريعة إليه متى خالفت مقصود الشرع الإسلامى، وتلعب النية دوراً هاماً فى تصديق هذا أو تكذيبه .
ويكون التوسل موافق للعقيدة متى كان المقصود تعظيم الخالق، وأن المخلوق لا دور له سوى عمله الصالح ومكانته التى آلت إليه من خالقه ومن صور ذلك
التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة والإيمان ومن ذلك الصلاة والصوم والصدقة والتوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، وسائر الأعمال الصالحة .
ويكون التوسل شرك ومخالف للعقيدة متى كان مقصده تعظيم غير الله ومن ذلك مما هو يقصد بتقرب العبد إلى الله بما لم يثبت في الكتاب ولا في صحيح السنة أنه وسيلة معتبرة ومن ذلك الذبح على الأضرحة والقباب والعكوف على قبور الصالحين وسؤال الله بعبد قاصداً ذاته من دون الله .
النقطة الرابعة : التوسل بالنبى ﷺ جائز فى حياته أما بعد مماته فقد تكون زريعة إلى الشرك متى قصد به ذات النبى لأنه عبد لله إلا إذا قصد غير ذلك فجائز . لأنه لا فرق فى كرامة النبى حياً وميتاً لما ثبت حياة الأنبياء بعد ترك الدنيا .
النقطة الخامسة : أن التوسل بالأنبياء والصالحين مرتبط إرتباطاً وثيقاً بالعقيدة، لأن المقصود بالتوسل هى الذات العليا وهو رب العباد، فإذا قصد غيره كان شركاً .

والله أعلم وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

أهم مراجع البحث

القرآن الكريم

١- إتحاف الأزكياء بجوار التوسل بالأنبياء . للغمارى ط٢ ١٩٨٤ م عالم الكتب – بيروت .

٢- أحاديث التوسل والزيارة، للشيخ الدكتور المحدث محمود سعيد ممدوح ط٢ ١٩٨٥ م

٣- إحياء علوم الدين للغزالى – دار المعرفة بيروت

٤- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى تحقيق طه محمد الزينى الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ط١ ١٣٩٦ هت – ١٩٧٦ م

٥- الإيمان لابن تيمية – المكتب الإسلامى بدمشق – ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م

٦- البحر المحيط لأبن حيان الأندلسى ط دار الفكر – بيروت – ط٢ مصورة عن طبعة السلطان عبد الحفيظ سلطان المغرب .

٧- تاج العروس للزبيدى المطبعة الخيرية بمصر

٨- التأمل فى حقيقة التوسل . عيسى المانع. ط ١ سنة ٢٠٠١ م دار قرطبة للنشر

٩- الترغيب والترهيب للمنذرى ط٢ ١٣٧٣ هت ١٩٥٤ م مطبعة الحلبى

١٠- تفسير البيضاوى تحقيق عبد القادر عرفات – دار الفكر بيروت ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ م

١١- تفسير الطبرى لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى – دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م

١٢- تفسير القرآن العظيم –لابن كثير – دار الفكر – بيروت – ١٤٠١

١٣- تفسير القرطبى (محمد بن أحمد القرطبى) ط دار احياء التراث العربى – بيروت ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م

١٤- التمهيد لابن عبد البر تحقيق مصطفى ابن أحمد العلوى ومحمد البكرى

١٥- التوسل : أنواعه وأحكامه – محمد ناصر الدين الألباني– محمد عيد العباسي ص١١ الطبعة الثالثة / منقحة ومصححة / المكتب الإسلامي
١٦- التوسل محمد عبد القيوم القدرى – المكتبة قدرية بالجامعة النظامية الرضوية لاهور باكستان ط٣ ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م
١٧- جامع الأصول لابن الأثير الجزرى تحقيق عبد القادر الأرناؤطى ط١ ١٣٨٩ هـ ١٩٦٩ م مطبعة الملاح .
١٨- حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى دار الكتاب العربى بيروت ١٤٠٥ هـ ط٤
١٩- دار الريان للتراث – دار الكتاب العربى بيروت القاهرة ١٤٠٧ هـ
٢٠- دلائل النبوة النبوة للأصفهانى – تحقيق محمد محمود الحداد – دار طبعة الرياض – ط١ ١٤٠٩ هـ –
٢١- رفع المنارة لتخريج أحاديث التوسل والزيارة، للشيخ الدكتور المحدث محمود سعيد ممدوح ط١ ١٩٨٥ م
٢٢- روح البيان التفسير الكبير للرازى دار إحياء التراث العربى – بيروت ط٣
٢٣- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم السبع المثانى للإمام محمد الألوسى أبو الفضل – دار الفكر بيروت ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م
٢٤- زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم محمد حبيب الله الشنقيطى دار الفكر ١٩٧٩ م
٢٥- زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى – المكتب الإسلامى – ط٣ بيروت – ١٤٠٤ هـ
٢٦- زاد المعاد فى هدى خير العباد (ابن القيم الجوزية) تحقيق شعيب الأرناؤطى – مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية بيروت – الكويت ط ١٤ ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٦ م
٢٧- سنن أبى داود ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م مطبعة الحلبى
٢٨- سنن ابن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى دار الفكر – بيروت

٢٩- سنن الترمذى تحقيق أحمد شاكر – دار احياء التراث العربى بيروت
٣٠- سنن النسائى ترقيم االشيخ أبو عدة – دار البشائر الإسلامية ط٤ ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م
٣١- سير أعلام النبلاء للإمام اللذهبى تحقيق شعيب الأرناؤطى ومحمد نعيم العرقسوسى – مؤسسة الرسالة بيروت ط٩ ١٤١٣ هـ
٣٢- السيرة النبوية لابن هشام تحقيق طه عبد الرؤوف سعد دار الجيل بيروت ط١ ١٤١١ هـ
٣٣- شرح السنة
٣٤- شرح النووى على صحيح مسلم للنووي- المطبعة المصرية
٣٥- الشرك ومظاهره للعميلى الجزائرى ط٢ ١٩٦٦ م
٣٦- شفاء السقام فى زيارة خير الإنام (تقى الدين السبكى) ط٢ ١٩٧٨ م – منشورات دار الأفاق الجيدة بيروت
٣٧- الصحاح للجوهرى تحقيق أحمد عبد الغفور عطار – دارالعلم للملايين – بيروت ط٣ ١٤٠٤ هـ ١٩٧٩ م
٣٨- عقيدة المؤمن لأبو بكر الجزائربنشر مكتبةالعلوم والحكم السعودية ٢٠٠٤ م – ١٤٢٥ هـ ط١
٣٩- فتح الباري شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى – تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ومحب الدين الخطيب دار المعرفة بيروت – ١٣٧٩
٤٠- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية لابن علان
٤١- الفتوحات الربانية على الأذكار النوويةلابن علان دار إحياء التراث العربى بيروت
٤٢- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ط المكتبة التجارية الكبرى مصر ط١ ١٣٥٦ هـ
٤٣- الكامل فى ضعفاء الرجال

٤٤- الكامل فى ضعفاء الرجال لابن عدى تحقيق يحى مختار غزوى دار الفكر بيروت ط ٣ ١٤٠٩ هـ -١٩٨٨ م
٤٥- الكشاف للزمخشرى – تحقيق محمدالصادق- قمحاوى ط البابى الحلبى – مصر – الطبعة الأخيرة ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م
٤٦- لسان العرب لابن منظور ط دار الصادق – بيروت ط الأولى
٤٧- مجمع الزوائد للهيثمى ومنبع الفؤاد للهيثمى ط٢ ١٩٦٧ م
٤٨- مجمع الزوائد مجموع الفتاوى الكبيرى لابن تيمية ط١ ١٣٩٨ هـ
٤٩- مستدرك الحاكم على الصحيحين للحاكم نشر مكتبة مطابع النصر الحديثة بالرياض .
٥٠- مسند الإمام أحمد – أحمد بن حنبل ط١ – ١٣٨٩ هـ – ١٩٦٩ م المكتب الإسلامى دار صادر
٥١- مصباح الزجاجة لشر سنن ابن ماجة لآحمد بن أبى بكر الكنانى – تحقيق محمد المتقى الكشناوى – دار العربية بيروت ط٢ ١٤٠٣ هـ
٥٢- المعجم الأوسط للطبرانى تحقيق محمود الطحان المعارف ط١ ١٩٨٥ م
٥٣- المعجم الكبير للطبرانى تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى دار احياء التراث العربى بيرت ط٢ ١٩٨٥ م
٥٤- مفردات ألفاظ القرآن تحقيق صفوان عدنان – دووادى دارالقلم دمشق – دار الشامية بيروت ط١ ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م
٥٥- الواسطة بين الحق والخلق لابن تيمية .